

فضاء الصحراء: قصة الرمال الفاضلة في السيرة السردية

لإبراهيم الكوني

الأستاذ نعار محمد^١

الملخص

لا شك أن ما توصل إليه الإنسان حول مناحي الحياة وفي جوانب كثيرة منها دفع به إلى رفاه ورفع الغبن عنه كثيرا لكن في مناحي كثيرة أضر هذا التحول بالإنسان وأضر بالكون من حيث الطابع الأخلاقي الذي أصبح يطغى على سلوك الإنسان مع هذه التحولات واستغلالها ضد أخيه الإنسان وضد البيئة وبدرجة أولى على النسق الثقافي والحضاري لهذا المحيط من أجل ذلك تخاطبنا الصحراء من خلال تمثيلاتها لحياة النقاء والسكينة والهدوء. من أجل ذلك أردنا أن نوجه هذه الأفكار ومناقشتها ومعالجتها من خلال الأعمال السردية القصصية للكاتب الليبي إبراهيم الكوني في نظرة مستشرفة لواقع التحولات وأثرها على الثقافة الصحراوية ومواجهتها لها.

الكلمات المفتاحية: الصحراء، إبراهيم الكوني، صحراء إفريقية، الثقافة الصحراوية، البيئة الصحراوية، قصص صحراوية.

الصحراء جغرافيا ثقافية

تحتل الصحراء مساحة تقدر بثلاث سطح اليابسة، بين نوع قاحل تسود فيه الرمال ودرجات الحرارة وصحاري باردة في القطب الشمالي والجنوبي. ومن المعلوم أن صحاري العالم تقع في المنطقة التي توجد ضمن شمال مدار السرطان حتى الجنوب من مدار الجدي، حيث تعتبر هذه المساحة من المساحات التي تتعرض إلى ضغط مرتفع، وارتفاع في درجات الحرارة، مما يؤثر عليها وهناك مميزات أخرى ففي حين يكون

١ المحاضر جامعة ابن خلدون ولاية تيارت دولة الجزائر

المناخ تقريبا شبه جاف لكن في أحيان ليست بالقليلة تتساقط الأمطار بشكل كبير بفترات قصيرة، مما يترتب عليه حدوث فيضانات أما عن درج تكون بتفاوت كبير للغاية بالليل والنهار، إضافة إلى العواصف الرملية هذا لا يخلوا من أنهنك واحات ونخيل ومزروعات تتحمل ندرة المياه، أما عن خصائص النباتات الأخرى فهي تمتلك القدرة على تخزين الماء، ومن أكثر الحيوانات تحملا للعطش والتي يستأنس بها الإنسان الجمل، إضافة إلى حيوانات أخرى.

يوجد العديد من الصحاري المشهورة حول العالم منها صحراء القطب الجنوبي والشمالي صحراء الربع الخالي، الصحراء الإفريقية الكبرى، وصحراء جوبي، وتوجد في قارة آسيا الصحراء العربية، وتوجد في منطقة الشرق الأوسط الصحراء السورية، وتوجد في منطقة الشرق الأوسط صحراء فكتوريا الكبرى، وتقع في قارة أستراليا صحراء كالهاري، وتوجد في قارة إفريقيا صحراء الحوض العظيم، وتقع في شمالي أمريكا صحراء باتاغونيا،¹...

تتوفر الصحراء على كميات كبيرة من الثروات الطبيعية والتي تتمثل في البترول والفحم، المعادن من أجل ذلك أنشأ البشر كيانات بشرية تضم مجتمعات سكنية ومناطق صناعية حيث يتم وضع كل الإمكانيات والتسهيلات لمن يعمل في هذه الأماكن، حتى يتم جذب أكبر عدد ممكن للعيش في البيئة الصحراوية البشر الذين يأتون للعيش في الصحاري يستخدمون هذا المورد ويغيرون أيضاً الغطاء الأرضي عن طريق إزالة النباتات أثناء تطوير المدن والبلدات هذه الخسارة في الحياة النباتية يمكن أن تترك كميات أقل من المياه في التربة وتؤدي إلى تآكل التربة، مما يخلق المزيد من العقبات

¹كلثومة نجار أقيس 2008 | "الصحراء من إيكولوجيا الإلهي إلى التنمية المستدامة"، كتاب أشرف على إعداده أحمد مورو وبرنارد كالاورا « / Insaniyat، إنسانيات 2008، mis | 41 [En ligne] en ligne le 23 juillet 2012، consulté le 26 février 2022. URL : <http://journals.openedition.org/insaniyat/2573> ; DOI :

<https://doi.org/10.4000/insaniyat.2573>

أمام النباتات في جذرها كانت لها انعكاسات خطيرة على البيئة الصحراوية البيولوجية والسوسيلوجيا.^١

موضوعة الصحراء: الكوني نموذجاً.

لا يخرج الكوني في كتابته السردية، عن منوال هذا النوع من الكتابة فهو يبقى ظاهراً في علاقة ضبابية، بين ما يكتبه وبين الأحداث المسرودة والشخصيات وكذا الأمكنة، التي تحتوي الأحداث الجارية ولكن سلطان إبراهيم الكوني يميزه تقلده عالماً جديداً، احتوى هذه المكونات المذكورة، إنه الزمن الذي خص به عالمه الروائي وهو زمن عجائبي غرائبي، في ضيافة عالم عجيب ساحر هو الصحراء وبذلك يتربع الكوني في أعماله السردية المتميزة، وبالميزة التي تربع من خلالها كونه السارد، المتصدر بلسانه وقلمه راوياً لهذا العالم وهو الذي يتوارى في أعماله، ما بين غياب وحضور في مجريات هذه المدونة السردية.

بلسان الغائب، يبدأ الراوي وصف المكان وبتراخي زمني، تغلب عليه التفاصيل متحيزة في بؤرة محددة، بمسح دقيق مفصل يبرز الفكرة ويلبسها في زاوية مقصودة ويروي من خلالها فمن قمم الجبال الزمن المنشود، الذي ينفذ عن نفسه كل ثوب، ففي " القمم العارية، يقترب من الآلهة يتحرر من البدن ويصبح بمقدوره أن يمدّ يده ويقطف البدر أو يجني النجوم. من هذا الموقع يروق له أن يراقب الناس في حضيضهم، يتسابقون بنشاط النمل فيظن أنهم قد حققوا المعجزة ينزل إلى أرضهم فيجد أنهم دراويش أشقياء، يجدون في البحث ولكنهم لا يجنون سوى الباطل كم يبدو سعيهم مضحكاً وقبيحاً من المنازل العليا"^٢ وفي موضع آخر " فيا أهل الصحراء، إذا فتحت لكم واو أبوابها فاخرجوا منها عراة، لأنكم عراة دخلتم إليها"^٣.

١ المرجع السابق

٢ المجوس، الجزء الأول، دار التنوير للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٩٢، ص ٩

٣ المصدر السابق ص ٣٠٨

هذا الخطاب (الغائب الحاضر)، تتقد معه حركية السرد لتدفع بالزمن إلى أفاق متحررة، جاعلا من السيولة الوصفية، التي تغمر الزمن المكتوب، زمن الجبال والصحراء في تشاكل مع المسميات، في مشهد عجيب "أمناي"، إله القبلي، حفره الريح في فجّ بين أعلى جبلين شمال "تينبكتو" رأسه معمم بقناع حجريّ موشى بطبقة من الحصى يغطي العينين وينسدل حتّى الأنف المكابر المنصوب إلى أعلى، نحو السّموات...^١

إنها وثيقة موازية وصورة طبق الأصل، سرية جدا سربتها الصحراء، العجيب الذي تتملكه لغة ساحرة ومتأصلة على لسان السارد، الذي يغمرنا بزمن خيالي مضياف، بهيج فرجوي في كثير من محطاته وعبر شخصه من الكائنات المختلفة.

تتصاقب اللغة بموضوعاتها، تميل بامتياز للتشخيص وتستند في غالبا على التوثيق: إحالات وهوامش في الحواشي، متشبهة بروايات متواترة عبر الأجيال، تعيدنا إلى الزمن المنشود، لأننا نتيه في الزمن المسرود المتدفق كالسيل.

كيف استطاع الكوني أن يشخص ويعقلن. ربما. زمنا سحريا وتنزيله إلى الواقع، في لغة محكية تحاكي بامتياز زمنا منفلتا واستطاع أن يقيد هذا الزمن كتابة "إن ما يميز العجائبية ليس مجرد موقف اتجاه الأحداث للمروية بل طبيعة هذه الأحداث في حد ذاتها"^٢

تكتسي العجائبية بعدا كونيا وتمتاز لمسات الكوني فيها بمجهودات معرفية مقارنة، تسلط زمنها ومسارها الأنثروبولوجي والأنتوغرافي، من خلال رواياته ومنها الرواية الهندية في زمن الخطيئة ونشأة الإنسان، جاء في المجوس "عجن الإله جسد الإنسان من الطين وصعد إلى السماء لكي يعود له بالروح لإحيائه، تاركاً خلفه الكلب لحراسة البدن أثناء غيابه في هذا الوقت جاء إبليس ونفخ في الكلب ريحاً باردة فخرته. دثره بغطاء من فرو حتى يضعف يقظته. ثم بصق على بدن الإنسان وغمره بالقاذورات

١ المصدر السابق ص. ن.

٢ المصدر نفسه، ص ١٣١.

إلى حدّ جعل الإله يشعر باليأس لاستحالة تطهير الجسد من العفن الشيطاني. من هنا قرر الإله أن يقلب جلد الإنسان ويجعل ظاهره في باطنه".^١

ماذا تروي حكايات الصحراء عن سلطاتها؟ إنه الامتثال، امتثال الصحراوي لسلطانها في رواية "المجوس" يقول الراوي "ولكن الخبراء أكدوا أن الصحراء عندما تتلثم بالعتمة والحداد فإن أكثر السحب جودا بالمطر سرعان ما تتخلى عن عزمها وتسلم الأمر للقبلي وتروي العجائز أن الخصمين الأبديين قد قاما من قديم الزمان بتقسيم الصحراء، فأصبحت الصحراء الجنوبية منطقة نفوذ القبلي وفاز المطر بالحمادة الشمالية ولم يخل الطرفان بالميثاق إلا في حالات نادرة"^٢

نغوص مع الكوني في معالم الصحراء، مع الطير والنبات والمناخ وأيضا حيننا آخر يتناول تقاليد وطقوس حياة البشر فيها لكن هذا التدفق سرعان ما يخفت حين يرتبط ببعض رؤى خاصة، يريد الكاتب أن ينتصر لها فتتشاكل الأدوار، التي هي بين زمنين زمن المسميات والأفعال وزمن الأحوال والصفات التي يقع تقديرها الزمني المتخيل من قبل الحدس والتخمين الذي يتصل بمحدودية أو التقرب من هذا الفضاء من خلال شخصياتها لدرويش الأميرة تينيري وأوفا وأوداد.

ما يجعلنا ننزاح ابتداء إلى وجود مصاقبة بين الزمنيين لكن يبدو أن إتمام الزمن إلى محطة موجّهة مقصودة بلوازم الفضاء وعرفه، يجعلنا في صراع فعلي وتردد في الحكم على صلة المماثلة والمصاقبة بين الزمنيين.

إنّ علاقة الدّات بالمكان مثلا في روايات الكوني، علاقة إشكالية تحتفي بزمن عتيق، نجد رواياته هذه تصل الحاضر بصور قديمة في هذا الامتثال ففي المرويات القديمة عن الشعر العربي في الطلل صقب البداية في ذلك كما يحتفي بذلك التراث والفكر والوجود الإنساني برّمته ومن مبرّرات هذا الاهتمام أيضاً أننا وجدنا شبكة من

١ ينظر المرجع السابق ص ١٩

٢ المجوس، الجزء الأول، ص ١٤.

المفردات، تؤدي بنا إلى تقدير هذا الفضاء في المشمولات الإبداعية، التي قدمها إبراهيم الكوني في رواياته عنه فهي تطرد باستمرار وبتنوعات مختلفة متباينة، يجعلنا نتساءل عن طبيعة المشروع، الذي يشتغل من خلاله إبراهيم الكوني وهو يجعل من الصحراء موضوعاً له؟ وهل لذلك تمثل لتشكيل سردي جديد معاصر على الصعيد العربي والعالمي؟

ثمرة الترفاس : زاوية نظر لمشروع الكوني

الترفاس أحد العتبات التي نجد لها حضوراً تداولياً في هذا المشروع بأنها إحدى الحكم التي تختصر لنا عالم الصحراء ونسقتها، يقودنا الكوني من خلالها متمثلاً لواقعها، مفصلاً في قصص كثيرة من هذا المشروع حياة الترفاس كنز، "واكتشاف الكنز مشروط بوجود الطلسم مفتاح السر، فأين طلسمك أيتها الثمرة السحرية؟" أهو بين يدي العرافين كما يؤكد الأهالي؟ إنه أسلوب الحكى، مثل الحكايات الشعبية التي تتكون من سلسلة حلقات، إنها أسطورة جميلة، وهي تتحدث عن نهر السماء، حين تقول عما قريب سيجتمع الغمام. غمام كثيف محمل بمطر غزير. هذا ماء النهر الذي رفعه الله من الأرض عندما أراد أن يعاقب هذه القبائل الشقية في الزمان القديم فتحولت الدنيا إلى صحراء كبرى نهرها في السماء كما ترى. ويرق قلب الرحيم على العباد فيروها بين الحين والآخر، ويتلطف أحياناً أخرى، ويبلل ريق الصحراء العطشى بقطرات منه، لتصل إلى الإشارة، وهي البرق السوط المفتول من ألسنة الشرر يغلق الأفق المتجهم، المزدهم بالسحاب المطير. السوط الرياني لبي توسلات الشذى السحري"¹

في مماثلة وتشكيل، تقريبا الصلات وانتهائها في صمدية ربانية موحدة، يقرن حضور ثمرة الترفاس ورمزيتها بهذا المعنى في روايات الكوني، من خلال شخصية النفري .. حيث الذات في عالم الصحراء، تتشكل من خصوصيتها المطلقة بلا تاريخية، مثلما

١ حسين عيد واقع وحلم وأسطورة في قفص إبراهيم الكوني - <https://www.albayan.ae/five-senses/2000-05-27-1.1036513>

٢٠٠٠ مايو 27: البيان

الترفاس النبات يتكون داخل التربة ويظهر بفضل عناصر طبيعية محضّة، تتمدد البذرة في العدم، تلتقط أنفاساً من باطن الأرض. في تراب الصحراء أنفاس كثيرة من دون بذور وبغير جذور تمضي كما وفدت بلا أثر ولا شاهد وهي في عرف الصحراوي كنز وجود به الغيب على عابر التيه من أوزار الملكية ممن اختاروا العزلة ولبسوا ثياب الزهد وانقطعوا في الخلاء".^١

من حيث التشكيل اللغوي الحالي، تسيطر البنية الأسطورية على النسيج السردي لدى إبراهيم الكوني وتنسحب على جميع مكوناته " فالصحراء بخصائصها الجغرافية والأريكلوجية المتميزة والمتفردة تبدو كأسطورة ناطقة، فإذا كل ما فيها من رمال وواحات وعيون وأضواء ورياح ونباتات وحيوانات، ومعارف وطقوس ورسومات على الجبال وجدران الكهوف وطقوس وعادات، يتفرد بسمات خاصة تطبعه بالغموض والغرابة. من هنا انسحب البعد الأسطوري على كل مكونات هذا الفضاء".^٢

تلك اللغة وبنيتها التشكيلية، التي وقع الكثيرون في حيرة من أمرهم إزاءها، لأنها غارقة في بانوراما مذهلة : زمن واقعي /أسطوري، مثلما نجده منسجماً مع واقع الدهشة، التي كتب على منوالها كتاب وأدباء أمريكا الجنوبية، من خلال ما سعي بالواقعية السحرية وقد افترض البعض، أن الانغماس في الهوية وائتلاف زمني بهذا المنظر، يبدو في العادة أنه يعبر عن موقف الكاتب من العالم تجاه الضفة الأوربية، التي احتلت وما زال فعلها في البلاد التي احتلتها رغم استقلالها، محاولة منها زعزعة النسيج المدني في هذه البلدان وتفكيك أواصره التاريخية والحضارية وهذه شهادة من قبل الناقد الروسي تنحاز لذلك.

«فلاديمير غوسيف» أستاذ الأسلوبية بمعهد «غوركي» بموسكو: «شاهدت الشمال الإفريقي بعيني. لست مستشرقاً ولكنّ الصّحراء فتحت لنا من الداخل بحرارة

١ المرجع السابق

٢ المرجع نفسه

وقساوة نثر إبراهيم الكوني هل نصه نص ضد أوربا؟ هل هي الوجه للتعبير عن الوجود؟ في عالم الصحراء، عالم القرآن، عالم القيم الزهدية والنقاء والحياة في أحضان الطبيعة... ثمّة أشياء كثيرة يقصر الفهم المجرد عن إدراكها، ولكنّه ينهض من تلقاء نفسه من داخل المناخ الرّوائي، راسماً أمامنا ذلك العالم الصّحراوي القاسي، الطبيعي، وهو في الوقت نفسه رويحي متوتر، زهدي، إنّه أمر في غاية الغرابة، إذ من النّادر أن يصف إبراهيم الكونيّ الصحراء نفسها، كي نحسّها ورغم ذلك فإنّ نموذج السّماء المفتوحة فوق الأرض، العراء المنبسط حيناً والأرض الجبلية حيناً آخر تظنّ قائمة نصب أعيننا خلال عملية القراءة كلها^١.

في السياق نفسه والاشتغال كذلك، من الصحراء نفسها وعلى امتداد المسافات يكتب الروائي الموريتاني موسى ولد ابنو عن الصحراء ويجعل منها النفس الأخير، لمملكة الفرصة الأخيرة للبشر، من أجل الحياة أو بالأحرى إرادة الحياة، فعلا ففي اللحظة التي تتلوث فيه رمال الصحراء تنتفض الرمال وتعلن ثورتها " يكتشف أهل أودافوست أن آبار المدينة جفت، يصلون صلاة الاستسقاء، وفي نهاية الصلاة يفاجئون برجل دميم يخطب فيهم منددا بهم لاسترقاقهم المسلمين رغم ادعائهم الإسلام، وتعاليمهم، وتكاليمهم على الدنيا.. يتعرف "فارا" على أمة جميلة "فاله"، ويشاركان في التحضير لثورة العبيد التي تفشل لوشاية بعضهم ببعض، ويلقيه سيده في بئر الكنيف ليعاقبه، في هذا القسم من الرواية نستمع إلى صرخات "فارا" المطالبة بالمساواة مع كراهيته المطلقة للبشر واحتقاره لهم "هذه الرمال النقية، السابحة في الضوء، كان

١ الصحراء في أدب إبراهيم الكوني.. شعريّة الفضاء السردي <https://www.alittihad.ae/news15>

أكتوبر ٢٠٢٠: ١٠

يمكن أن تكون ذات مال مطلق لو لم تكن ملوثة بهذا البشر^١
إننا نكتشف هنا نموذجاً، يعري لنا أحد أسرار العالم، التي سنعجز بدونها عن فهم أورها ونعجز عن اكتشاف أشياء أخرى كثيرة، بتنا نجهلها وسنعجز بدونها عن فهم الحياة نفسها، لأن الصحراء ظلت منذ الأزل تضع الإنسان وجهاً لوجه، أمام كينونته تضعه متجاوزة العالم الصناعي كله متجاوزة الحضارات الفخاخ وكل أقنعة القرن العشرين الأخرى تضعه كما نرى داخل العالم نفسه^٢

خاتمة

عالم الصحراء فضاء أصيل وقوة أصيلة تكتسي مبتدأ الحياة وخبرها وهي تنتفض لجرم الإنسان الذي خلفه على الأرض الصحراء مرآة وزمن هلامي أصيل لا يقبل استنساخاً ولا مسخاً عالم واحد وإرادة موسومة المعالم لا تقبل قسمة أو تنازلاً الصحراء واحة المعطوبين من أثار الحياة وتوجساتها وخلص المقهورين وواحة المتأملين إنها نسق ثقافي يفرض ملكه ويبسطه في الإرجاء يمتد بكل قوة ليرهن مصائر من يحاول الطمس والإخلال بقدرسية هذا النسق هذا ما أمكن أن نكتشفه ونحن في ضيافة الصحراء من البوابة التي أرشدنا إليها الكاتب المتميز الذي تسكنه الرمال والناقة والإنسان الطارقي الأصيل في صحاري ليبيا والجزائر ومالي والنيجر وتشاد.

المصادر والمراجع

١. أقيس كلثومة نجار، "الصحراء من إيكولوجيا الإلهي إلى التنمية المستدامة"، كتاب أشرف على إعداده أحمد مورو وبرنارد كالاوورا.

١ موسى ولد ابنو م (١٩٩٦) مدينة الرياح أولاً بالفرنسية عن دار L'Harmattan سنة ١٩٩٤ تحت

عنوان Barzakh قبل أن تصدر بالعربية عن دار الآداب ببيروت. ص ١٤

٢ الصحراء في أدب إبراهيم الكوني... شعرة الفضاء السردي <https://www.alittihad.ae/news15>

أكتوبر ٢٠٢٠. ١٠:٢٠

٢. المجوس، الجزء الأول، دار التنوير للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٢، ص ٩
٣. حسين عيد واقع وحلم وأسطورة في قصص إبراهيم الكوني.
٤. موسى ولد ابنو، مدينة الرياح، أولا بالفرنسية عن دار L'Harmattan سنة ١٩٩٤
تحت عنوان Barzakh قبل أن تصدر بالعربية عن دار الآداب. بيروت. ص ١٤
٥. إبراهيم، الصحراء في أدب.. شعريّة الفضاء السردى
<https://www.alittihad.ae/news15٠١:٠٢٢٠٢٠ أكتوبر>
٦. البيان الرابط: ٢٧ مايو ٢٠٠٠
<https://www.albayan.ae/five-senses/2000-05-27-1.1036513>